محاضرة 02:

النظرية في علم الاجتماع

تعد النظرية بالنسبة لأي علم من العلوم – طبيعية كانت أو اجتماعية – ضرورة ملحة لأي باحث .فالنظرية هي بمثابة الأساس الذي يبني عليه هذا العلم أو ذاك، ومثل أي أساس لأي بناء، تتحدد قوة العلم وتماسك بنيته بقوة الأساس الذي بني عليه وتماسكه .بل أكثر من ذلك أن التقدم الذي يحرزه أي علم من العلوم إنما يتحقق بالتقدم الذي تحرزه نظريات ذلك العلم .فالتقدم العلمي لا يمكن أن يتم إلا إذا أحرز على مستوى النظرية أولاً .إضافة إلى أن النظرية هي التي تساعدنا على التفسير والتحليل لنتائج أي بحث علمي نقوم به.

وتحتل النظرية في العلوم الاجتماعية بصفة عامة، وفي علم الاجتماع بصفة خاصة، نفس هذه الأهمية وتلك المكانة، حتى أن أحد علماء الاجتماع – وهو تالكوت بارسونز – نجده يشير إلى النظرية من حيث وظيفتها في البحث العلمي فيقول أن" النظرية لا تصبح فقط ما نعرفه ولكنها تقول أيضا ما نود معرفته، أي أنها تمدنا بالأسئلة التي نبحث لها عن إجابة." ويمكن القول بأن النظرية في علم الاجتماع إنما تمثل امتدادا لما يسمى بالفكر الاجتماعي الذي ترجع جذوره إلى المفكرين الاجتماعيين والفلاسفة القدماء،

أولاً :في معنى النظرية الاجتماعية وإشكالياتها-:

تتفق النظرية الاجتماعية مع غيرها من النظريات العلمية من حيث بناؤها ووظائفها في العلم. فإذا كانت النظريات العلمية تشير إلى نسق من المعرفة العلمية المهمة التي تفسر الجوانب المختلفة للواقع، فإن النظرية في علم الاجتماع لا تختلف عن ذلك. وإذا كانت النظريات العلمية تخضع للتحقق من صدقها عن طريق الملاحظة الأمبيريقية أي التجريبية، فإن النظريات الاجتماعية لا تبعد عن ذلك. وإذا كانت النظريات العلمية تمثل أعلى درجة من درجات التجريد والتعميم في العلم، فإن النظرية الاجتماعية هي أيضا أعلى درجة من درجات التجريد والتعميم في علم الاجتماع. وإذا كانت النظرية العلمية داخل أي علم من العلوم – طبيعي كان أو اجتماعي – مهمتها تفسير الوقائع التي تمت ملاحظتها عن طريق وضع فروض جديدة لاختبار صدقها، فإن النظرية (الاجتماعية، أيضا تقوم بنفس المهمة.(

وتهدف النظرية الاجتماعية إلى تقديم تفسيرات وتصورات نظرية للحياة الاجتماعية من حيث تطورها ونشأتها وتغيرها أو من حيث علاقة كل جانب من جوانب هذه الحياة بغيره من الجوانب.

وفي محاولته لتحديد معنى النظرية الاجتماعية وأهدافها، يؤكد عالم الاجتماع "نيكولا تيماشيف" على أن النظرية في علم الاجتماع تحاول الإجابة على عدة أسئلة هامة من أبرزها: – ما المجتمع؟ – ما المكونات الرئيسية لذلك المجتمع؟ – ما طبيعة العلاقة بين المجتمع والفرد؟

– ما العوامل التي تؤدي إلى التغيرات الاجتماعية؟

أما "س.رايت ميلز" فيحاول تحديد معنى النظرية الاجتماعية، من خلال تحديد الأسئلة الرئيسية التي ينبغي أن تحاول النظرية الاجتماعية الإجابة عليها وهي: – ما هي طبيعة البناء الاجتماعي للمجتمع الإنساني؟ – ما هي مكونات ذلك البناء وكيف ترتبط ببعضها البعض؟

– كيف يختلف ذلك البناء عن غيره من الأبنية الاجتماعية؟ – ما هي آليات تغير المجتمع الإنساني؟

– ما الخصائص الاجتماعية المميزة للفترة التاريخية التي يتحرك في إطارها المجتمع؟

– ما هي نوعيات الرجال والنساء التي لها السيادة في هذا المجتمع في تلك الفترة؟

ومن الواضح إذن أن النظرية في علم الاجتماع –مثل أي علم طبيعي– هي التي تحدد موضوع العلم وأهدافه ووظائفه. ومن ثم فإنه إذا كان علم الاجتماع يمتلك مكونات ثلاث هي: النظرية، والمنهج، والظواهر التي تشكل إطارا لبحثه، فإن النظرية تعد هي أكثر هذه المكونات الثلاث أهمية استنادا إلى أنها هي المكون الذي يحدد الظواهر موضوع الدراسة، ومن ثم هي التي تحدد أيضا أكثر المناهج ملاءمة لدراسة هذه الظواهر.

أما فيما يتعلق بوظيفة النظرية في علم الاجتماع، فإنه يمكن القول بأن هناك جملة وظائف علمية لنظرية علم الاجتماع، ومن ذلك دورها في تنظيم البحث الاجتماعي، وتوجيه الباحث إلى الظواهر والوقائع الاجتماعية التي تستحق الدراسة أو تحتاج للدراسة، كذلك توضيح وتفسير العلاقات أو الارتباطات بين المعطيات الواقعية المختلفة، وغير ذلك من وظائف علمية (تتسم بها أي نظرية علمية أخرى داخل أي علم من العلوم.

غير أنه تجدر الإشارة أن هناك وظائف أخرى تؤديها نظرية علم الاجتماع دون غيرها من النظريات في العلوم الأخرى، أي أنها وظائف خاصة بنظرية علم الاجتماع، وهي وظائف تجعل لوجود النظرية الاجتماعية معنى، ولعلم الاجتماع ضرورة بين غيره من العلوم. ومن أهم هذه الوظائف وظيفة النقد. والدلائل على هذه الوظيفة النقدية لعلم الاجتماع ونظريته أنه ظهر أساسا في عصر التنوير وفي ظل الفلسفة النقدية، وحيث كان مفكرو هذا العصر أكثر تفهما للوظيفة النقدية لعلم الاجتماع ونظريته. ولم نكن نلحظ منظرا مهما إلا وكانت له تصوراته المتعلقة بالتغيير وآليات ذلك التغيير، (مهما كانت درجة هذا التغيير وتوجهاته. مع انه يجب الاشارة الى انها في كثير من الأحيان لا تقوم بدورها النقدي بدرجة جيدة ، **ويمكن ارجاع ذلك الى عدة اسباب** أهمها الأسباب الاجتماعية والإيديولوجية المتعلقة بنوايا ومصالح وانتماءات الباحثين. وفي ذلك يقرر عالم الاجتماع البريطاني "بوتومور" بأن أزمة نظرية علم الاجتماع تكمن في تحول هذه النظرية إلى نظرية وضعية وصفية، وابتعادها عن دورها النقدي العلمي (الاجتماعي.(

ويمكن التأصيل لأسباب ابتعاد النظرية الاجتماعية عن دورها النقدي بالرجوع إلى تاريخ ظهور هذا العلم. فحينما ظهر علم الاجتماع حاولت الطبقة الرأسمالية الصناعية الناشئة في ذلك الوقت استخدام علم الاجتماع لإخفاء الحقائق الاجتماعية أو تشويهها وتزييف وعي الجماهير، حيث كانت هذه الطبقة الرأسمالية الجديدة ترى أنه ليس من مصلحتها كشف الحقائق الاجتماعية لأن من شأن ذلك أن يكشف عن استغلالها للطبقات العاملة، وتسمى التوجهات الفكرية هذه التيارات "المحافظة ، لكن بعد ذلك تغيرت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فبدأت تظهر تيارات نظرية جديدة في علم الاجتماع تصارع من أجل كشف الحقائق الاجتماعية ومقاومة الاستغلال ونقد الأوضاع الاجتماعية القائمة من أجل صالح الإنسان وسعادته، واتخذت هذه التيارات النظرية لنفسها مسمى جديد هو "الراديكالية"،

إشكالية أخرى للنظرية الاجتماعية – قد تكون مترتبة في جزء كبير منها على الإشكالية الأولى – متمثلة في وجود حشد هائل من الآراء والتفسيرات المختلفة بل والمتناقضة أحيانًا بين علماء الاجتماع، ويصل هذا التضارب والاختلاف إلى

تعريف الظواهر ذاتها التي يدرسونها بما في ذلك أكثرها عمومية مثل "المجتمع" الذي مازلنا نجد له عشرات التعريفات المختلفة في علم الاجتماع.

وإضافة إلى الإشكاليات السابقة، توجد إشكالية هامة أيضا تواجه الدارس للنظرية في علم الاجتماع، وتتمثل في أن كلاً من النظريات الرئيسية داخل علم الاجتماع تضم داخليا اتجاهات مختلفة بعضها قد يكون قديما والبعض الأخر قد يكون حديثًا، ويرتبط كل من هذه الاتجاهات باسم عالم من العلماء أو أكثر، ومما يزيد الأمر تعقيدا أن كل نظرية من النظريات الأساسية وكل اتجاه من الاتجاهات الفرعية داخل كل نظرية أساسية، يضم حشدا هائلاً من المفهومات المختلفة التي تشير إلى نفس الشيء أو المفهومات المختلفة التي تشير إلى أشياء مختلفة، مما يجعل عملية المقارنة بين النظريات أمرا بالغ التعقيد.

إشكالية أخرى تواجه النظرية في علم الاجتماع، ألا وهي صعوبة تصنيف هذه النظريات المتعددة والمتباينة التي أشرنا إليها. فمثلما لا توجد نظرية عامة واحدة متفق عليها بين علماء الاجتماع، لا يوجد أيضا أساس واحد متفق عليه لتصنيف هذه النظريات. ولنأخذ مثالاً واحدا في ذلك – حالة عالم الاجتماع الفرنسي "إميل دوركايم – لقد صنف بعض علماء الاجتماع نظريته الشهيرة تحت مسمى "النظريات العضوية الوضعية"، بينما صنفه آخرون تحت مسمى "علم الاجتماع التحليلي"، وصنفه فريق ثالث تحت مسمى "النظرية البنائية"، وصنفه فريق رابع تحت مسمى "النظريات المثالية" ... وينطبق هذا بالطبع على كافة أصحاب النظريات الاجتماعية.

التوجهات النظرية الأساسية في علم الاجتماع:

انطلاقًا ما تم ذكره بخصوص الوظيفة النقدية التي ينبغي أن تكون هي الوظيفة الرئيسية للنظرية الاجتماعية ولعلم الاجتماع، واستنادا أيضا إلى ما تم الإشارة إليه بخصوص تباين وتعدد الرؤى الفكرية للواقع الاجتماعي من قبل علماء الاجتماع وواضعي النظرية الاجتماعية... انطلاقًا من كل ذلك يمكن تصنيف النظريات الاجتماعية الأساسية إلى تيارين رئيسين هما: التيار المحافظ، والتيار الراديكالي النقدي.

يضم التيار المحافظ هؤلاء العلماء والمنظرين الاجتماعيين الذين دعمتهم الرأسمالية الصناعية في بداية نشأتها على أنقاض النظام الإقطاعي، وذلك في مقابل صياغتهم النظرية التي تخفي كثيرا من حقائق النظام الاجتماعي الرأسمالي الجديد وتخفي آليات الاستغلال والقمع للطبقات الخاضعة، إضافة إلى أنها نظريات تدعو إلى الحفاظ على النظام الرأسمالي القائم وعلى الأوضاع الاجتماعية السائدة، وتحاول تبرير القمع والاستغلال الرأسمالي، وترى أن المبدأ الأساسي للحياة الاجتماعية هو الاستقرار والنظام. ومن ثم أطلق على هذا التيار اسم: "التيار المحافظ"، وذلك في مقابل "التيار النقدي" وهو تيار ثوري راديكالي يحاول مؤيدوه دائما الكشف عن الجوانب السلبية في الواقع الاجتماعي والكشف عن أساليب الاستغلال والقمع التي تمارسها الطبقات المسيطرة على النظام، وتباين الحقائق الاجتماعية والنقد الدائم للأوضاع الاجتماعية السائدة.

1) التيار المحافظ:

أوجست كونت حاول "كونت" من خلال مؤلفاته، وضع أسس علمه الجديد الذي أطلق عليه في بادئ الأمر اسم "الفيزياء الاجتماعية" ثم أطلق عليه بعد ذلك مسمى "علم الاجتماع".

يرى "كونت" في نظريته أن النظام في ذاته غاية ووسيلة لتحقيق التقدم. لذلك كان هدف "كونت" من تأسيس علم الاجتماع هو إصلاح مجتمعه الذي هزته الفلسفات النقدية مثل فلسفة التنوير، والتحركات الثورية مثل الثورة الفرنسية، ومن هنا اعتبر "كونت" أن الاتجاهات النقدية هي اتجاهات هدامة، لذلك يميل علم الاجتماع لديه إلى أن يكون أداة للمحافظة على النظام القائم. ويتضح ذلك في استخدامه لمصطلح "وضعي Positivine حيث يطلق علي نظريته "النظرية الوضعية"، وتعني كلمة وضعي الوقوف بموقف إيجابي من النظام الاجتماعي القائم. ونادى بضرورة محاكاة علم الاجتماع للعلوم الطبيعية. واعتبر علم الاجتماع علم وضعي، يشبه العلوم الطبيعية، وغايته الحفاظ على النظام القائم.

وانطلاقًا من مقولة "الحفاظ على النظام القائم"، يرفض "أوجيست كونت" أية محاولات للتغيير عن طريق الثورة، وإذا ما أردنا تغيير أوضاع اجتماعية معينة، فليكن السبيل إلى ذلك: التوعية والتربية التي يجب أن تكون هي الوسيلة الأساسية لإصلاح المجتمع، حيث يؤمن "كونت" بالتغيير التدريجي البطيء، ويؤيد قمع أي حركات راديكالية، بل أكثر من ذلك أيد "كونت" إقامة النظم الديكتاتورية.

كذلك توصل "كونت" إلى ما أسماه "قانون الحالات الثلاثة" ومضمون هذا القانون هو أن الحالة الفكرية هي التي توجه وتحدد كل ما عداها من صور الحياة الاجتماعية. وأن جوهر العملية التاريخية هو تطور الفكر. ومؤدى هذا القانون أن العقل الإنساني يمر بمراحل ثلاثة: المرحلة الأولى هي ما أسماها "المرحلة اللاهوتية" أو مرحلة "التفكير الديني" وهي تلك المرحلة التي يفسر فيها العقل الظواهر عن طريق نسبتها إلى قوى أو كائنات غير منظورة وخارجة عن إرادة البشر. والمرحلة الثانية هي "المرحلة الفلسفية" وهي المرحلة التي يفسر فيها العقل الإنساني الظواهر المختلفة عن طريق قوى ميتافيزيقية مجردة وعلل لا يمكن إثباتها لأنها علل غير ملموسة. أما المرحلة الثالثة فهي "المرحلة الوضعية" أو "المرحلة العلمية" وهي مرحلة الفهم العلمي التي يذهب فيها العقل إلى تفسير الظواهر بنسبتها إلى القوانين التي تحكمها والأسباب المباشرة التي تؤثر فيها. ويفهم من قانون الحالات الثلاثة أن "كونت" قد اعتبر أن الفكر هو محرك المجتمع. كذلك يرى "كونت" أن الفرد لا قيمة له إلا بوجوده وتعاون مع الآخرين، لذلك اعتبر "الأسرة" هي أهم الوحدات الاجتماعية في المجتمع.